

237968 - هل نداء الجمادات يعد من الشرك بالله؟

السؤال

أنا طالب جامعي مقبل على تحضير شهادة الدكتورة في الأدب العربي تخصص تحليل الخطاب وعندني استفسار أرجو منكم تفصيلا في جوابه هل في قول الشاعر: يا دار عبلة بالجواء تكملي ، ونحوها يعد شركا. وهل كل نداء لغائب أو جماد أو بكاء على طلل يعد شركا. أرجو التوضيح من فضلكم. وجزاكم الله خيرا.

ملخص الإجابة

النداء لا يكون شركا إلا إذا كان فيه استغاثة بغير الله ، وطلب حقيقي منه ، لشيء لا يقدر على فعله غير الله .

الإجابة المفصلة

ليس كل نداء لغائب أو جماد يعد شركاً ، بل يختلف الحكم باختلاف القصد من النداء .

وذلك أن النداء في لغة العرب ، وإن كان الأصل فيه طلب الإجابة لأمر ما ، إلا أنه يستعمل لمعانٍ أخرى مختلفة ، تفهم من السياق والقرائن ، وشوأه ذلك في لغة العرب وأشعارهم كثيرة ومستفيضة .

فقد يكون النداء على سبيل "التحسر والتوجع" ، كقول الشاعر يرثي معن بن زائدة:
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارِيْتُ جُودَهُ ** وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُثْرَعاً

وقد يكون للتعجب ، كقول طرفة:

يَا لَكَ مِنْ قُبَّرَةٍ بِمَعْمِرٍ ** خَلَالِكَ الْجَوُّ فَبِيَضِي وَاصْفَرِي

وقد يكون المقصود به التذكرة ، وهي النداء للتوجع على الشيء أو للتوجع منه ، كقول أبي العلاء:
فَوَاعْجَبًا كَمْ يَدْعُى الْفَضْلَ نَاقْصُ ** وَوَأَسْفًا كَمْ يَظْهَرُ النَّقْصُ فَاضْلَ

وقد يوجه النداء إلى من لم يقصد إسماعه ، كأن تقول لميّت تذكرة: يا زيد ما أجل مصيّتنا بفقدك.

ومن ذلك : نداء الأطلال والمنازل والمطابيا ، كقول أبي العلاء:
يَا نَاقْ جَدِّي فَقْدَ أَفَنَّتِ أَنَاثِكِ بِي ** صَبْرِي وَعُمْرِي وَأَحْلَاسِي وَأَنْسَاعِي
وقول النابغة :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالسَّنَدِ ** أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

وقول امرى القيس:

ألا عم صباحاً أليها الطلاق البالي ** وهل يعمن من كان في العصر الحالي

وقد ينادون الأوقات، بمعنى الاشتقاء لطولها، أو المدح لها بما نالوا من السرور فيها.

كما قال امرأ القيس متضجرأ من طول ليله:

ألا أليها الليل الطويل ألا أنجلي ** يصبح وما الإضيال منك بامثل

قال ابن الشجري (المتوفى سنة 542 هـ): "فهذه وجوه شئى قد احتملها النداء، وإن كان في أصل وضعه لتبنيه المدعى" انتهى من "أمالى ابن الشجري" (1/417).

وجاء في كتاب "البلاغة العربية: أنسها، وعلومها، وفنونها" (1/241): "وقد يخرج النداء عن المعنى الأصلي الموضوع له ، فيستعمل لدى البلغاء وغيرهم في أغراض أخرى غير النداء، وهذه الأغراض تفهم من قرائن الحال أو قرائن المقال ، فكل حركة نفسية ذات مشاعر، تدفع الإنسان إلى التعبير عنها بنداء ما ، بطريقة تلقائية ، ولو لم يشعر بأن هذا النداء يحقق له مرجواً أو مأمولاً ، أو يدفع عنه مكروهاً.

كأن يستعمل النداء في : الزجر واللوم ، أو التحسّر والتأسف والتفجع والندم أو الثّدبة ، أو الإغراء ، أو الاستغاثة ، أو اليأس وانقطاع الرجاء ، أو التمني ، أو التذكرة وبث الأحزان ، أو التضجر ، أو الاختصاص ، أو التعجب ، إلى غير ذلك" انتهى.

وينظر: "جوهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع" (ص: 90) ، "علوم البلاغة ، البيان، المعاني، البدع" (ص: 82) ، "البلاغة العربية" (1/250).

يتبع ما سبق :

أن أسلوب النداء ليس ملزماً للطلب والدعاء ، أو الاستغاثة ، في كل أحواله ، وإنما قد يكون للطلب ، وقد لا يكون ، بحسب سياق الكلام ومقصوده ، ولذلك لا يصح أن يجعل النداء (هكذا مطلقاً في جميع أحواله) مناطاً لبناء الشرك أو الكفر عليه ؛ لاحتماله وتردد़ه بين معانٍ مختلفة في الحقيقة والحكم .

بل مناط الحكم في هذا الباب هو تحقق الطلب من غير الله ، فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ فحيث وجد هذا النوع من الطلب في النداء أو غيره : كان شركاً ، وإذا لم يوجد لم يكن شركاً ، ولو كان بصيغة النداء والدعاء .

فكل من نادى غير الله من الجمادات وغيرها ، وظهر من حاله أو القرائن المحتفظة بالكلام ، أو واقعه : بأنه لا يقصد الطلب ، وإنما له مقصود بلاغي ، أو أدبي ، أو وجدي آخر، سوى الطلب والرغبة ، على ما مر تفصيله ، فهو في الحقيقة لم يقع في الاستغاثة بغير الله .

وبناء على هذا ، فقول القائل : "يا دار عبلة" أو قول بعضهم : "يا طيبة" : ليس داخلاً في باب الشرك قطعاً ؛ لأنَّه في الحقيقة لا ينادي الدار ، أو المدينة ، نداء طلب واستغاثة ، وإنما يناديها نداء توجع وتآلم ، فهو لا يطلب من المدينة شيئاً ، وإنما يظهر ما جاش في مشاعره من الألم والتوجع والشوق والحنين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وقوله : (يا محمد يا نبي الله) هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب ، فيخاطب المشهود بالقلب ، كما يقول المصلي : (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) ، والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا ، يخاطب من يتصوره في نفسه ، وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب" انتهى من "اقتضاء الصراط المستقيم" (2/319).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب: " المستغاث به عندهم هو الذي يدعى ويسأله ويطلب منه الغوث ، والمنادى هو داعي المنادى .

لكن فرقوا بين دعاء المستغاث به وغيره ، كما فرقوا بين دعاء الندية وغيره ، كقوله : يا حسرتا على ما فرطت ، وقولهم : يا أبتاه ، يا عمراه ، ونحو ذلك مما يلحقون في آخره ألفاً لأجل مد الصوت ، إذ النادب الحزين يمد صوته وهو يندب ما قد فات ، فيمد الصوت في آخر دعائه كقوله: يا أسداه ، يا ركتاه ، يا أبتاه ، حتى قالوا يا أمير المؤمنين ، يا عبد الملك ، إذ نداء الندية يقوله الإنسان عند حدوث أمر عظيم، ويقوله للتوجع، كقول سارة حين بشرت بإسحاق: يا ويلنا.

بخلاف المستغث فإنه يدعوا المستغاث به كما يدعوا غيره ، فيقول: يا لزيد ، كقوله يا زيد ، لكن دل بهذه الصيغة أنه يطلب منه الإعانة على ما يهمه من أمره مطلقاً ، بخلاف النداء المجرد فإنه لا يدل على ذلك .

فالمستغث بالشيء : داعيه ، مع زيادة طلب الإغاثة" . انتهى من "التوسيع عن توحيد الخالق" (ص: 304) .

وقال الشيخ محمد بشير السهسواني (المتوفى: 1326هـ) : "المانعون لنداء الميت والحمد ، وكذا الغائب ، إنما يمنعونه بشرطين: الأول : أن يكون النداء حقيقةً ، لا مجازياً.

والثاني: أن يقصد ويطلب به من المنادى ما لا يقدر عليه إلا الله ، من جلب النفع وكشف الضر. مثلاً يقال: يا سيدى فلان ؛ اشف مريضي وارزقني ولداً ، ولا مرية أن هذا النداء هو الدعاء ، والدعاء هو العبادة، فكيف يشك مسلم في كونه كفراً وإشراكاً وعبادة لغير الله ؟ . ثم قال : " وأما النداء المجازي : فلا يمنعه أحد" . انتهى من "صيانت الإنسان عن وسوسات الشيخ دحلان" (ص: 366).

وقال : " مراد المانعين للنداء ليس مطلقاً للنداء ، بل النداء الحقيقي الذي يقصد به من المنادى ما لا يقدر عليه إلا الله ، من جلب النفع وكشف الضر ، ولا مرية في أنه عبادة ، وكونه عبادة وممنوعاً لا يقتضي كون كل نداء ممنوعاً ، حتى يلزم منه عدم جواز نداء الأحياء فيما يقدرون عليه" انتهى من "صيانت الإنسان" (ص: 367).

وقد سئل الشيخ عبد البراك حفظه الله تعالى عن سؤال الجمادات والمحسوسات على سبيل المناجاة في القصائد ونحوها ، في أمور لا يقدر عليها إلا الله، نحو قول أمي القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

نحو قولهم في الشعر النبطي:

يا قبر أعز إنسان غالى رقد فيك * خف عليه من التراب الثقيل

ونحوها، تكون من دعاء غير الله ، أم تكون من المجازات أو الاستعارات فيتناهى فيها؟

فأجاب:

"الحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، أما بعد؛ فإن ما في البيتين من النداء ليس من قبيل دعاء غير الله الذي هو شرك. بل النداء والأمر في البيت الأول : غاية الشاعر فيه التمني بانجلاء الليل، ونداء الليل نوع من التخييل بأن الليل يسمع ويجيب، والشاعر يعلم أنه لا يسمع ولا يجيب، ولا ينجلب بإرادة منه.

وكذا خطاب القبر في البيت الثاني : فإنه محض تخيل وأمان، أو تحسُّر على الدفين الذي لا يملك له الشاعر ولا غيره إنقاذه من مصيره، بل المالك لذلك الله وحده، الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قادر.

وهكذا القول في كل ما يرد في الأشعار من خطاب الجمادات؛ كالاطلال والديار والدُّمن والقبور، فكل ذلك من قبيل التمني أو التحسُّر. أما خطاب أصحاب القبور والأموات، لقضاء الحاجات : فهو الشرك المحبط للحسنات. فيجب الفرقان بين التمنيات، والتحسرات، ودعاء الأموات، والله أعلم".

أملاه: عبد الرحمن بن ناصر البراك 17/صفر/1434هـ

والحاصل :

أن النداء لا يكون شركا إلا إذا كان فيه استغاثة بغير الله، وطلب حقيقي منه، لشيء لا يقدر على فعله غير الله .
والله أعلم .